

الزمكانية في رواية "أعاصير في بلاد الشام"

□

حسن شوندى*

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٦/٢٢ هـ ش

زهرا محمود اصفهاني**

تاريخ القبول: ١٣٩٠/٧/١٠ هـ ش

□

الملخص

قبضت الأديبة السورية ناديا خوست على جمر الإبداع، ولوّنته بثقافتها بقدره وطرفه. فوفّرت لقصصها حساسية فريدة جعلتها واحدة من المبدعات اللواتي يعتز اتحاد الكتاب العرب بانتمائهن إليه. فناديا خوست تفوح بعطر بلاد الشام، فحناؤها ليس دمشقيا فقط. لعب المكان في الرواية الفلسطينية دورا وظيفيا واضحا، وارتبطت بمراحل الصراع العربي الصهيوني. فنلاحظ وجود نمطين للمكان في الرواية السورية هما: المكان المغلق والمكان المفتوح، ولكل منهما خصائص وميزات تعكس الطبيعة الفكرية والنفسية للشخصية التي تعيش فيها.

لقد وعى الروائيون الفلسطينيون الأهمية الكبيرة للزمن. فهي تعود إلى الوراء لتسترجع أحداثا تكون قد حصلت في الماضي. أو على العكس من ذلك تقفز إلى الأمام لتستشرف ما هو آت، أو متوقع من الأحداث. وفيما يلي يدرس البحث واقع الرواية، وأهم القضايا والمفاهيم والأفكار التي تناولوها بهذا الصدد، ومن ثم يخلص إلى دراسة الرواية فنيا، فيقف على علاقتها بالمكونات الروائية: المكان والزمان.

الكلمات الدلالية: ناديا خوست، أعاصير في بلاد الشام، الرواية، المكان، الزمان، فلسطين

Hsh50156@yahoo.com

*. أستاذ مساعد بجامعة آزاد الإسلامية في كرج، إيران.

** . طالبة مرحلة الماجستير بجامعة آزاد الإسلامية في كرج، إيران.

المقدمة

ظهرت على الساحة الأدبية، بعض الأعمال الروائية ذات الصبغة الواقعية، فالكاتبة نادية خوست، من هؤلاء الأديبات العربيات اللاتي وجهت ثقافتها وموهبتها نحو التاريخ العربي، ويمكن القول إنّ رواية "أعاصير في بلاد الشام" قصة حقيقية، بحيث أظن بأن القارئ يرجع إلى كتب التاريخ ليتأكد من صحة الأحداث المسرودة في النص.

ننتبه قبل القراءة إلى أن الأحداث التي نقرأها هنا هي أحداث حقيقية، لأن القارئ قادر على الرجوع إلى الكتب التاريخية للتأكد من صحة المسرود. ولا شك في أن هدف نادية خوست ليس دفع القارئ إلى كتب التاريخ ليتأكد بنفسه من صحة الأحداث المسرودة، بل هدفه هو مجرد الحصول على ثقة القارئ بصحة المسرود.

تقع رواية "أعاصير في بلاد الشام" في حوالي ٢٠٦ صفحات من الحجم الكبير، مقطورة الفصول من دون عناوين، وهي رواية في جملتها العامة مستلّة من الوثائق، والمذكرات، وأخبار الحرب، والرواة، الحقيقيين الذين عاشوا في القرى والمدن الفلسطينية. ففي هذه الرواية تسجل المؤامرات والهزائم، والأذى، والبكاء، والأحزان، والتغنى بما كان، والأمكنة، وطقوس الليل، والنهار، والندم... كلها توصيفات شديدة الحضور في الرواية.

هذه الرواية مشطورة إلى شطرين كبيرين أولهما: فإنّه يسجل وقائع العجز العربي بفعل سقوط القرى والمدن الفلسطينية قرية بعد قرية، ومدينة بعد مدينة أخرى، والثاني: فهو يسجل حركة الفعل الصهيوني الذي لم يعرف اليأس تجاه الاحتلال المزيد من القرى والمدن الفلسطينية.

والرواية مهمومة بما حدث في قرية "صفورية" الجليلية من إشعال الحرب وطقوسها كأنموذج لكل ما حدث في الجليل الأعلى، والحدث في الرواية أكبر عما حدث في صفورية التي عاش فيها قيس، صفورية الملاعب، والمدارس، والكنائس، والفوانيس، صفورية والحرب، ثمّ الفاجعة، والعودة الرية والحرب، ثمّ الفاجعة، والعودة إلى صفورية في الفجر وفي رجوعه الأخير يمشى على بساط الأحزاب. فيتهم بالإلحاد، ويسجن مرات عديدة، وأخيراً تختتم الرواية فصولها.



وفيما يلي يدرس البحث واقع الرواية، فيقف على علاقتها بالمكونات الروائية: المكان والزمان. يشكّل كلّ من المكان والزمان الروائيين أحد المكونات الأساسية في بناء الرواية. فهما يدخلان في علاقات متعدّدة مع المكونات الحكائية الأخرى للسرد، كالشخصيات والأحداث والرؤيات السردية. ويوصف المكان الروائي عادة - وهو مكان محدد في كثير من الأحيان - بأنه مسرح الأحداث، أو الحيز الذي تتحرّك فيه الشخصيات، أو تقيم فيه، فتنشأ بذلك علاقة متبادلة، بين الشخصية والمكان، وهي علاقة ضرورية، لتمنح العمل الروائي خصوصيته، وطابعه، ومن ثم ليكتسب المكان صفاته ومعناه ودلالته.

أمّا الزمان الروائي، فهو يتجلى في عناصر الرواية كافة، وتظهر آثاره واضحة، على ملامح الشخصيات وطبائعها وسلوكها، فالأحداث التي يسردها الكاتب، والشخصيات الروائية التي يجسدها، كلّها تتحرّك في زمن محدّد يُقاس بالساعات وبالأيام والشهور والسنين. وهذا يعني أنّه زمن تصاعدي. إذ يفترض أن يجري عرض الأحداث وفق تسلسلها الزمني المنطقي الطبيعي. (بحراوي، ١٩٩٠م: ٢٦)

على أنّ استجابة الرواية لهذا التتابع الطبيعي في عرض الأحداث، حالة افتراضية أكثر مما هي واقعية، لأن تلك المتواليات الحكائية، قد تبتعد كثيراً أو قليلاً عن المجرى الخطّي للسرد، فهي تعود إلى الوراء لتسترجع أحداثاً تكون قد حصلت في الماضي. أو على العكس من ذلك تقفز إلى الأمام لتستشرف ما هو آت، أو متوقّع من الأحداث. وفي كلتا الحالتين نكون إزاء مفارقة زمنية، توقف استرسال الحكى المتنامي، وتفسح المجال أمام نوع من الذهاب والإياب على محور السرد، انطلاقاً من النقطة التي وصلتها القصة. وهكذا فتارة تكون إزاء سرد استذكارى... وتارة أخرى تكون إزاء سرد استشرافي. (المصدر نفسه: ١١٩)

لعب المكان في الرواية الفلسطينية دوراً وظيفياً واضحاً لدى معظم الكتاب. أمثال غسان كنفاني، وإميل حبيبي، وجبرا إبراهيم جبرا. وشغل حيزاً بارزاً في رواياتهم، وفي تفكير العديد من الشخصيات الروائية واهتمامها. واتخذ معاني ودلالات ورموزاً متنوعة، ارتبطت بمراحل الصراع العربي الصهيوني، والزمن الفلسطيني في صعوده وهبوطه. (المصدر نفسه: ٣٠) على الرغم من صعوبة الفصل بين المكان والزمان، سنحاول دراسة كل منهما على حدة. وهنا يمكن

الوقوف على بعض الأمثلة التي تظهر العلاقة التبادلية بين المكان والشخصية، وبنائه فنياً.

ملخص الرواية

تستند هذه الرواية إلى شهادات شخصية، وإلى موسوعات ووثائق ومذكرات وكتب تاريخية. تبدأ رواية "أعاصير في بلاد الشام" من النهاية التي عاد فيها قيس إلى إربد بعدما طوّح في الدنيا عشرات السنين، وبعد أن تطوّح الاتحاد السوفييتي وكواكبه. وبالطبع، لن تكون الرواية بعد مثل هذه البداية، سوى استعادة لحياة بطلها، وإن يكن حضور النهاية سيمثل بين حين وحين أثناء الاستعادة. ينتمى قيس إلى قرية صفورية الفلسطينية التي أبادها الصهاينة في الحرب التي أسفرت عن قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م. وإذا كانت الرواية في أولى فقرات البداية ستجيبه بتلك الإبادة، فهي ستجيبه أيضاً بذكرى غزاة وأغانى أسمهان. ثم تنهمر مما آل إليه قيس بعد أربعين سنة فهو أخلط من فرادته منذ نشأته، وحسبنا من ذلك نبوءته بخراب المعسكر الاشتراكي: هل كان له حدس الأنبياء وبصيرة المنجمين يوم قال: ما بدأ به الثوار نسيه السياسيون؟ ومن تلك الأخلط مصادفته في مطار فيينا إبان عودته الأخيرة العجربة التي ستستدعى ذكرى غجربة طبريا من اليقاعة أيضاً. ومثل هذه الذكرى هي المعلومات عن زواج قيس وعن المسافة بينه وبين ابنه وعن كتابته الشعر ودراسته الفلسفة واستقباله في بيته للسفراء وقادة السياسيين وولعه بالنساء بحثاً عن ليله، وصداقته مع جورج ماكاي اليهودي الذي كان مستشاراً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي. ويصفه الصهاينة بخائن الشعب اليهودي لأنه يخالفهم.

ولد قيس في قرية تبعد عن الناصرة سبعة كيلومترات، اسمها صفورية. كان أبو قيس تاجر أغنام، يستوردها من الشام ومن تركيا. عاش قيس في صفورية حتى السنة التي سماها العرب "سنة النكبة". في ليلة ١٥ تموز ١٩٤٨م قصفها ثلاث طائرات إسرائيلية.

بدأت الرواية منذ البداية في التوثيق لعراقه صفورية، ثم في العمر الذي تلا عن قبة الصخرة وتغلغل اليهودي الصهيوني في الأحزاب الشيوعية، وتروتسكي



وإيخمان والبهائية وجيش الإنقاذ وتقسيم فلسطين وتسليح اليهود والصراع في الأردن خلال خمسينيات القرن الماضي...

هكذا صورت الرواية توالى المناوشات في صفورية أو صفد نذيراً بالحرب، ثم توالى سقوط المدن والقرى وقدم جيش الإنقاذ وفيه من الضباط السوريين أديب الشيشكلي وإحسان كم أوماظ وغسان جديد وسارى الفنيش الذى انسحب بجنوده فجأة تنفيذاً للأوامر، كما سيجلو السبب لقيس حين يلقاه فى إربد بعد أوبته الأخيرة إليها. وقد رسمت الرواية ببراعة مشاهد عديدة فى هذه التآخرة للحرب، من أبرزها ما جاء عبر القصة الفرعية لبهاء سواء فى القتل أو النزوح، وفى لبنان أو فى الصفصاف أو فى القدس أو على الحدود اللبنانية. توسلت الرواية أيضاً المذكرات: الدفتر المدرسى لأميرة التى سجلت فيه وقائع سقوط صفد كما سجل بهاء فى مفكرته ما تعلق بجيش الإنقاذ أو بالمعارك التى خاضها، فضلاً عما كان يحكيه لزوجته كلما عاد من معركة.

وقد آثرت الرواية غالباً أن تنتهى من كل قصة "فرعية" لمعركة قبل أن تنتقل إلى أخرى، وهو ما سيكرر أيضاً بصد حياة قيس والشخصيات الأخرى، حيث ندر أن لجأت الرواية إلى التقطيع كما كان بصد صفورية، وذلك باستكمال حكاية الحرب فيها حين حاول قيس العودة إليها بعد النزوح.

لقد حرصت الرواية على المستوى الآخر المتعلق بحياة قيس وأسرته ومن له به صلة، على فرادة بطلها "ستزيده المصادفات إيماناً ببصيرته وبأن ما يراه فى نومه أو يتصوره يقع". وكما كان الشعر مجلى لتلك الفرادة، كانت الأنثى، من غزاة ونجبية فى يفاعه قيس، إلى شهرزاد والمعلمة لور والبهائيات وإلهام... وابتداءً وانتهاءً بليلى التى دأبت الرواية منذ البداية على أن تكون رمزاً يلمع بصبوة قيس، فى استعادة لقصة العشق التراثية بين قيس وليلى.

وقد بلغ هذا الترميز فى النهاية مبلغ الفجاجة حين التقى قيس مصادفة ليلي الطالبة فى جامعة دمشق، وتوالى العبارات التى تختم الرواية: سيعض قيس فيما بعد صورتها فى جيبيه، وهو يعبر منظمات ممزقة، وبلاداً تهىء انهيارها، ويغطس منتقماً من نفسه ومنها ومن الواقع الذى ترنح، وسيتخيل أنه يحمى نفسه من كل ذلك بالحلم بها.

المكان فى الرواية

لعب المكان فى الرواية الفلسطينية دوراً وظيفياً واضحاً، ارتبطت بمراحل الصراع العربى الصهيونى، نلاحظ وجود نمطين للمكان فى الرواية السورية هما: المكان المغلق والمكان المفتوح، ولكل منهما خصائص وميزات تعكس الطبيعة الفكرية والنفسية للشخصية التى تعيش فيه، يكثُر حضور الشخصيات المثقفة فى الأماكن المغلقة كالمقهى والبيت والبار...، أو الأماكن المنعزلة كالغابات والجبال، مما يعكس انغلاق الأفق أمام الشخصية المثقفة من جهة، وعزلتها عن الناس، وعجزها عن القيام بالدور المنوط بها، وهو تغيير الحياة إلى الأفضل والأجمل من جهة أخرى. (بحراوى، ١٩٩٠م: ٤٣) فإننا نتوقف هنا فى سلطة المكان حول ثنائية المكان المغلق والمكان المفتوح.

المكان المغلق

أما رواية نادية خوست "أعاصير فى بلاد الشام" فتحتوى على مكانين متناقضين، هما المكان المعزول، والمكان المفتوح، وقد وظّفت "نادية خوست" هذين النوعين من الأمكنة لتكشف من خلالهما عن الطبيعة الفكرية والنفسية لشخصيات روايته.

فقد اختارت المؤلفة المقهى ماريًا للشخصية "قيس" النامية فى روايته لثلاثة من عمره لتمارس فيه العطالة وتزجية الوقت، بعد أن وضعها الواقع المؤلم على هامش الحياة. فهو يعود إلى الوراء لتسترجع أحداثاً تكون قد حصلت فى الماضى. أو على العكس من ذلك تقفز إلى الأمام لتستشرف ما هو آت، كان قيس يحب ذلك المقهى. كما يقول الراوى: «ذلك المقهى المزين بصور الفنانين والكتاب الذين جلسوا فيه، وجمع المرايا والثريات فى الطابق العلوى، إلى المقاعد الخشبية فى الطابق الأول. كان يجلس فيه كل يوم ولو قليلاً.» (خوست، ١٩٩٨م: ٧)

إن المقهى وهو أهم الأماكن التى تتواجد فيها أصحابه وأعداءه و هو المكان المفضل للشخصيات فى رواية "أعاصير فى بلاد الشام"، وكم مرّات التقى قيس فى هناك بطوران روبرت زميله فى قسم الفلسفة! كان طوران يقصده كلما رآه فى مقهى نرسييس، هو يهودى، فقد كان فى الصف عشرون طالباً من اليهود



وطالب واحد غير يهودى كانوا يستعينون بقيس فى الدروس. وأيضاً المقهى هو أهم المكان الذى قدم فيه نادىة خوست شخصيات مثقفة انعزلوا من الواقع والناس، وعجزت عن ممارسة دورها فى تغيير المجتمع، وانصرفت إلى شؤونها الذاتية والحلول الفردية.

لقد تبنت هذه الشخصيات مفهوماً للثورة يقضى بهدم العلاقات القديمة، والاستعاضة عنها بعلاقات جديدة. كما يقول الراوى: «مر بمقهى فيكتور الذى إنحاز ضد تيتو ذات يوم وهرب من يوغوسلافيا. وكان مختصاً فى الشؤون العربية. ويسر له قيس السفر إلى لبنان والأرض المحتلة مرات. زار إسرائيل وكتب عن العرب. وضع فيكتور الرسائل التى وصلتته على الطاولة الصغيرة أمام قيس وقالت: اقرأ: أتى اليوم الذى ستعلق فيه على المشنقة أيها الفاشى عدو الساميين!» يهددونى أيضاً بالهاتف!» (المصدر السابق: ٨)

قال قيس عقائده الاشتراكية لأبناء بلده فى المقهى: «أمنت الاشتراكية للإنسان العلم والمسكن والصحة والراحة والثقافة فالبلاد العربية والفلسطينيون سيخسرون سندهم العالمى إذا سقط المعسكر الاشتراكى!» (المصدر نفسه: ١٠) أجمع نقاد الرواية الجديدة على أن للمكان دوراً كبيراً فى تحديد الخصائص الفكرية والنفسية للشخصية، وأكدوا العلاقة المتبادلة بين المكان والشخصية، وذهبوا إلى أن وظيفة المكان هى إلقاء المزيد من الضوء على الشخصية، بغية الكشف عن عالمها الفكرى والنفسى: «إن بيت الإنسان امتداد لنفسه، إذا وصفت البيت فقد وصفت الإنسان.» (محيى الدين، لاتا: ٢٣١)

وصف المكان المغلق يتسم بالتركيز على الأشياء المبصرة فى بيت "قيس"، لأن الأشياء المبصرة واضحة دائماً، بل إن جزئياتها محدّدة. وإذا كان تقديم الأمكنة فى الرواية يأتى مرتبطاً بتقديم الشخصيات، مساعدتنا على فهم الشخصية ومستوى تفكيره، وطبيعة سلوكه. لنقرأ ما جاء على لسان الراوى:

«قيس وحده فى البيت الذى استقبل فيه سفراء، وقادة سياسيين، ولاجئين سياسيين، ومنفيين، وأصدقاء منهم كارلوس وزوجته لىلى وصديقه ستيف. رتب ثيابه فى حقيبة. على الرفوف الكتب التى انتقاها، حوله الكراسى والطاولة الخيزران الخضراء التى يحبها، "ألفازات" التى اختارها من مخازن المعروضات القديمة، فى

الخرزانة الكؤوس الكريستال المحفورة التي كان يستمتع بالشراب بها! أشياء تجسد العمر الطائر في مادة تلمس وترى! يتركها!» (خوست، ١٩٩٨م: ١٤-١٣)

المكان المفتوح

وأرض فلسطين أرض مباركة على حسب نص القرآن الكريم: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (الإسراء: ١)
الحقيقة أن الكلام عن بلاد الشام طويل جداً، لكننا نلقى شيئاً موجزاً عن أهميّة بلاد الشام؛ لأنه موضوع قوى، و مهمّة غاية، ومسللاته مؤثرة جداً في المستقبل الإسلامي. أما النمط الآخر فهو المكان المفتوح والامتسع الذي عرفنا عليه نادية خوست من خلال حديث "الراوى" عن بلاد الشام، وخاصة سقوط القرى والمدن الفلسطينية. وقد بدا هذا النمط من الأمكنة ذا أفق واسع وممتد. وكان مسرح الأحداث للروائية نادية خوست يجرى على أرض فلسطين، سنة ١٩٤٨م، بمدنها وقراها وشوارعها وأحيائها وبيوتها.

يقول الراوى بلسان ألفريد ليلنتال في كتابه "ثمن إسرائيل" لقيس «فى ٢٩ تشرين الثانى ١٩٤٧م صوتت هيئة الأمم على تقسيم فلسطين بين دولتين عربية ويهودية وإدارة دولية فى القدس، بأغلبية ٣٣ صوتاً ضد ١٣ صوتاً.» (خوست، ١٩٩٨م: ٥٧)

واقعة اتفاقية سايكس بيكو وتجزئه بلاد الشام، وضعت المؤلفة فى الصورة التحولية التى جرت لمجتمع بلاد الشام، فأسرة الرواية تجزأت كما تجزأت البلاد وأصبحنا نسمع لأول مرة، هذا سورى وهذا فلسطينى وهذا لبنانى وهذا أردنى... وهذا يقودنا إلى موضوع المكان، فالأحداث تبقى دائماً فى حركة متنقلة مابين صفد وصفورية وطبريا وعكا ودمشق وأربد، وهذا التحرك فى هذه الأمكنة له التأكيد على وحدة بلاد الشام.أنا أعتقد أن المؤلفة أثرت التحرك فى حلم قريب من الواقع، لا سيما أن بلاد الشام كانت فى تلك الفترة تعيش حالة وحدوية من الناحيتين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. بعد هذا القرار بدأت الاشتباكات فى بلاد الشام. كان الحى اليهودى يقطع طرقات صفد إلى قرى فلسطين ولبنان. كما يقول الراوى: «لا طريق إلى صفد إلا وادى الطواحين الذى لايسلكه إلا المشاة



والبغال.» (المصدر نفسه: ٦١)

تتعدّد الأمكنة التي تنتقل الاشخاص فيما بينها في الرواية، يكون ذلك مترافقاً مع تطور حركة الأحداث، ومن الطبيعي أن يتبع هذا التنقل تنوع في الدلالات المكانية تبعاً لتنوع تلك الأحداث. وهذا ما نقف عليه في رواية "أعاصير في بلاد الشام". احتلال القرى والمدن الفلسطينية قرية بعد قرية والمدينة بعد المدينة الأخرى عن القرية سعسع وعين الزيتون وصفصاف والمدينة صفد واللد والرينة ثم تنتقل من الأردن إلى لبنان.

ربطت المؤلفة في كل النص هذه الأجيال بأرضها، وغرست حب الوطن والأرض في وجدانها وفكرها، وجعلتها أشد انتماؤاً للوطن. شرحت المؤلفة في روايته هذا الواقع والأحزان والأذى بما كان على سبيل المثال: في قرية السعسع و عين الزيتون وصفصاف.

مجزرة قرية السعسع

هاجمت قوة من كتيبة "البماخ" الثالثة التابعة لل "هجاناه" في ١٤/٢/١٩٤٨م، قرية سعسع في أقصى شمال فلسطين، ودمرت عشرين منزلاً فوق رؤوس أصحابها، بالرغم من أن أهل القرية قد رفعوا الأعلام البيضاء، وكانت حصيلة هذه المجزرة، استشهاد حوالي ٦٠ من أهالي القرية، معظمهم من النساء والأطفال. (مركز المعلومات الوطني الفلسطيني، ٢٠١١م: موقع وفا)

«نسف بالبماخ جسور شرق المطلة، والجسر إلى عديسة، والجسر قرب سعسع وجسر الدان وجسر الحاصباني وجسر شيخ حسين. وهجم على قرية سعسع قرب عين الزيتون. سعسع قرية مكشوفة، بيوت متفرقة على منحدر، غير محصنة ولا محروسة، نسف بالبماخ عشرين بيتاً فيها وقتلت ماتيسر من أهلها.» (خوست، ١٩٩٨م: ٦٤)

مجزرة قرية عين الزيتون

هاجمت العصابات الصهيونية في ٤/٥/١٩٤٨م، قرية عين الزيتون في قضاء صفد، وتروى اليهودية نتيبا بن يهودا في كتابها "خلف التشويبهات" عن مجزرة عين الزيتون. فتقول: «في ٣ أو ٤ أيار ١٩٤٨ أعدم حوالي ٧٠ أسيراً عربياً مقيداً.»



(مركز المعلومات الوطني الفلسطيني، ٢٠١١م: موقع وفا)
 «جمع اليهود شباب عين الزيتون، قيدوا الواحد إلى الآخر بالحبال. جمعوا النساء عند العين وهددوهن بالقتل إذا تحركن. فتشوا البيوت. التقطوا من بقي فيها. أخذوا الشباب وقتلوهم عند جبل كنعان بين صفد وعين الزيتون. بعد قتلهم أمر موشيه كيلمان بأن تفك قيودهم ليخفى أنهم قتلوا بأمر هادئ! وصلت إلى صفد من عين الزيتون طول الليل أصوات الاستغاثة وعويل النساء. بعد المجزرة في عين الزيتون أطلق اليهود النساء من مكانهن عند النبع: ابتعدن كيلا نقتلكن!»
 (خوست، ١٩٩٨م: ٦٤)

مجزرة قرية الصفصاف

الصفصاف قرية عربية فلسطينية، تقع في قضاء صفد. دخلت العصابات الصهيونية إلى القرية في ١٩٤٨/١٢/٣٠م، وأخذت ٥٢ رجلاً من أهلها، ثم أطلقت عليهم النار، فاستشهد منهم عشرة. وعلى الرغم من مناشدة النساء وطلب الرحمة، إلا أن الإجابة جاءت بثلاث حوادث اغتصاب، وقتل أربع فتيات أخريات. (مركز المعلومات الوطني الفلسطيني، ٢٠١١م: موقع وفا)

«سقطت قرية الصفصاف في الشهر العاشر. قاومت طول الليل. ردت وجبات من المهاجمين اليهود. في الصباح انسحب المسلحون منها إلى لبنان. لكنها لم تسقط إلا بعد هجوم الطائرات الإسرائيلية في ٢٨ تشرين الأول ومقتل أكثر السرية العربية المدافعة عنها. بقي في القرية الأولاد والنساء والشيوخ، والقنطرة السورية والفلسطينيون. سقطت الصفصاف.» (خوست، ١٩٩٨م: ٨٠)

تتابع بعض المقاطع الوصفية لفضاء المكان المخيم، وما يشمله من أماكن فرعية، كوصف مركز البوليس، وبيوت منها بيت قيس مشهور بـ "المنزل" والقلعة صفد.
 «ماتزال مواقع العرب في صفد قوية. لهم مركز البوليس، "توغرت" صفد، البناء ذو الموقع الاستراتيجي على جبل كنعان شرقاً خارج المدينة. و"المنزل" الذي كان لسكن الطلاب الغرباء واحتله ساري الفنيش وكتيبته. والقلعة المرتفعة التي تتوسط البلد وتطل عليها كلها، وحولها أشجار الصنوبر وفيها بئر تكفي البلد كلها، وتحيط بها فنادق سياحية عربية ويهودية. في يد العرب الأبنية الاستراتيجية في



صفد: فندق رزق، بناية صالح عبد الغنى، بناية فؤاد الخولى!» (المصدر نفسه: ٧٧) وننتهى إلى القول، بأنّ للمكان أهمية كبرى في الكشف عن الكثير من الوقائع التى تقيم فيه. لأنّ هناك تأثيراً متبادلاً بين الطرفين اليهود والعرب فى بلاد الشام. وهذا يعنى أن ظهور الشخصيات، ونمو الأحداث التى تساهم فيها، هو ما يساعد على تشكيل البناء المكانى فى النص.

الزمان فى الرواية

«من العسير تعريف الزمان فهو من المفاهيم التى يعرفها الإنسان بالبدهة، ويصعب عليه تحديدها. وتعرفه موسوعة كولومبيا الأمريكية بأنه ترتيب متعاقب لكل الأحداث أو الفاصل بين حدثين فى هذه السلسلة المتعاقبة.» (خمار: لاتا) لقد وعى الروائيون الفلسطينيون الأهمية الكبيرة للزمان، ولدوره فى العمل الروائى، وفى بناء الشخصية الروائية، وتأثيره فى حياتها، وفى حركة الأحداث. فانطلقوا فى تعاملهم معه من خصوصية الواقع الفلسطينى الحافل بالأحداث والتطورات والتحولت، فجسدوا ذلك برؤية فنية تتسم بالصدق والواقعية. وحرصوا على تحديد الزمن الخارجى للحدث الروائى الذى يُراد تجسيده فى رواياتهم أو اتخاذه إطاراً لها، لارتباطه الوثيق بالزمن التاريخى للقضية. هذا، الزمن الذى يمثّل المقابل الخارجى الذى يسقطون عليه عالمهم التخيلى. واستعملوا فى تحديد الزمن المقاييس الموضوعية المعروفة، كالسنة والشهر واليوم والساعة والصبح والمساء... وكثيراً ما حرصوا على وضع علامات، أو قرائن تشير إلى تواريخ محددة، أو أحداث معروفة، سواء فى بداية الرواية، أو فى سياقها، لتدل على بداية الحدث الروائى وزمنه التاريخى بوضوح. (سمر روى، ١٩٩٥م: ١٨٠)

الزمن النفسى فى الرواية

يلعب الزمن فى الرواية دوراً هاماً وأساسياً، فهو يمثّل الشخصية الرئيسية «قيس»، وتشير إليه أدواته، ساعة الحائط التى ترصد دقائقها الرتيبة القاسية، حياة أولئك الذين يعيشون، فى عام النكبة.

فالزمن التاريخى بالنسبة للشخصية "قيس" وحبوباته، غزاة، أميرة، وليلى واحد. على حين نجد الزمن النفسى ليس كذلك، كما نقول فى الفصل الثانى:

«الزمن النفسى، ويسمى أيضا الزمن الداخلى أو الشخصى أو الذاتى. وهذا الزمن يرتبط بالشخصيات ارتباطا وثيقا، ويدخل فى نسيج حياتها الداخلية، ويتلون بتلون حالتها النفسية والشعورية، فيطول أو يقصر تبعا لتلك الحالة.» (سيزا، ١٩٨٤م: ٤٥-٤٤)

إلا إذ يبلغ الإحساس بالزمن الثقيل ذروته لدى "قيس". فتتحول دقائق الساعة فى حالة الضياع والقلق والانتظار الممض فى بداية الرواية. لأن المعسكر الاشتراكى قد ألغى وشعر أيضا بأنه غريب حتى فى بيته وخسر ما أنفق عليه عمره! كما يقول الراوى: «وصل فى الزمن الذى كان اليساريون فيه لايزالون يفسرون الانقلاب العالمى كأنه إصلاحات ضرورية، ويشعر القوميون والمؤسسات الرسمية فيه بأن كارثة نزلت بالدنيا، أفقدتهم سندا يتكئون عليه ولولم يحبوا طرازه.» (خوست، ١٩٩٨م: ٦)

هكذا تجسد "قيس" هذا الإحساس العميق والحاد بمرور الزمن، فيتضح بذلك الدور الذى يؤديه الزمن فى حياة هذه الشخصية. فالرواية هى رواية الزمن الفلسطينى الناهض الذى تعيش "قيس". وهذا الزمن أنعش روحه المعذب بعد نصف قرن من خروجه من صفورية. دلّت على ذلك الجمل: «فى ذلك الغروب، شعر وهو يحط فى مطار فيينا بأنه آمن وحر.» (المصدر نفسه: ١٤)

الزمن الطبيعى فى الرواية

الزمن الطبيعى خاصة موضوعية من خواص الطبيعة، ولهذه الخاصية جانبان هما: الزمن التاريخى والزمن الكونى وللزمن الطبيعى أيضا ارتباط وثيق بالتاريخ، حيث أن التاريخ يمثل إسقاطا للخبرة البشرية على خط الزمن الطبيعى. وهو يمثل الذاكرة البشرية: يختزن خبراتها مدونة فى نص له استقلاله عن عالم الرواية. ويستطيع الروائى أن يعترف منه كلما أراد أن يستخدم خيوطه فى عمله الفنى. واهتم الواقعيون اهتماما خاصا بالزمن التاريخى الذى يمثل المقابل الخارجى الذى يسقطون عليه عالمهم التخيلى. وقد أكد الناقد "أيان وات" أن هذه الخاصية من أهم الملامح المميزة للرواية الواقعية فى القرن التاسع عشر، وتمثل فى إسقاط حياة خاصة لشخصية تخيلية على خلفية من الخبرة العامة



الحقيقية وهي التاريخ. (سيزا، ١٩٨٤م: ٦٦)

تحصر ناديا خوست روايتها في الوقت الذي سبق احتلال فلسطين بأشهر قليلة، وماحدث بعد الاحتلال بوقت قصير أيضا. على الرغم من أن الزمن الفيزيائي للرواية واسع جدا يمتد من فترة احتلال اليهود لفلسطين إلى وقت إنهيار الاتحاد السوفيتي في التسعينيات هذا القرن. فعل نادبة خوست في "أعاصير في بلاد الشام". وقد يشير إلى ذلك بصورة دقيقة، فيبث بعض المعلومات أو الإشارات الزمنية في سياق الرواية، وتفهم القارئ زمن الأحداث خاصة حرب النكبة سنة ١٩٤٨م. ربطت المؤلفة "نادية خوست" الأجيال الفلسطينية بتراتها الشعبي، وبماضيها وتاريخها المجيد، وبأرضها ووطنها، عقب النكبة عام ١٩٤٨م، وأهم من ذلك كلها ربطت هذه الأجيال بأرضها، وغرست حب الوطن والأرض في وجدانها وفكرها، وجعلتها أشد انتماء للوطن.

تبدأ المؤلفة زمن الأحداث في هذه الرواية بعد قرار التقسيم الذي اقترحته لجنة الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧م. و«في ١٩٤٨/٢/٧ اجتمع مجلس الجامعة العربية وفحص تقرير اللجنة العسكرية عن الوضع في فلسطين بعد قرار التقسيم»، و«في ليلة ١٥ تموز ١٩٤٨م قصفتها ثلاث طائرات إسرائيلية. ووصلت في الليلة نفسها إلى محيطها فرقة شيفا وفصيلا مدفعية تسلت خمسة عشر كيلومترا في أرض عربية عند الفجر احتلت صفورية قدما للهجوم على الناصرة في "عملية ديكل". هاجر بعض سكانها إلى سوريا. وطرد من بقي فيها في أيلول ١٩٤٨م. ووضع في كانون الثاني ١٩٤٩م من عاد إليها متسللا في سيارات وأجلى إلى الرينة وكفر كنا.» (خوست، ١٩٩٨م: ٢٣)

حركتا الزمن السردى

الاسترجاع

وقد استخدم الروائيون طريقتين للعودة إلى الماضي: الأولى تم فيها استرجاع الماضي عن طريق الشخصية نفسها، وباستخدام ضمير المتكلم، وأما الثانية فتحققت فيها العودة إلى الماضي عن طريق الراوى الذي يستخدم في هذه الحال ضمير الغائب لإطلاعنا على ماضى الشخصيات. (ميثال، ١٩٨٢م: ٩٨)

في رواية "أعاصير في بلاد الشام" تكثر المقاطع الاسترجاعية التي تتداخل



فيها الذكريات لبعض الشخصيات الروائية مثل: قيس، بهاء، منور، أميرة... إذ يلجأ "قيس" للاسترجاع ليوضح بعض الجوانب أو القضايا الغامضة.

لجأت ناديا خوست بتخصيص حيز هام من الرواية لاستحضار ذكريات الماضي القريب والبعيد، لكل من "قيس وبهاء"، ليضيء عالميهما، ولا سيما عالم "قيس". فركزت الرواية على ماضيها قبل عام النكبة ١٩٤٨م، وبعدها أيضا بالوطن الذي تهفو إليه. توسلت الرواية أيضا المذكرات: شجرة التوت في كرم ابن عم أبيه وغزالة على الشجرة. سألته غزالة: «أرمت لك التوت؟ فنشر ذراعيه. فضحكت. فهمت أنه يريد أن ترمى نفسها عليه. نادته: أنت اصعد! من يرى الآن، غزالة أم هذه الفتاة التي لا يعرفها؟ أين أنت الآن يا غزالة؟» (خوست، ١٩٩٨م: ١١٣)

والدفتر المدرسي للأميرة التي سجلت فيه وقائع سقوط صفد كما يقول الراوي: «سجلت أميرة على دفتر المدرسة أحداث صفد. لمن؟ طبعا، لقيس الذي ستلتقي به عندما تنتهي الحرب، ويعود إلى مدرسته في صفد! طبعا له! كيلا يفوته يوم غاب عنه!» (المصدر نفسه: ٧١)

وأيا حكاية صفورية المنسوفة حين حاول قيس العودة إليها بعد النزوح «مايزال العمود القديم مكانه قرب النبع! مايزال بناء عين صفورية الذي أنشأته البلدية مكانه في وسط البلد قرب الشارع الرئيسي الذي يعبر القرية على "رأس البيادر" مايزال الماء يجري إليه من القسطل! ماتزال الحنفيات التي يستقي منها أهل صفورية موجودة، قربها مستودع ضخم ومكان تشرب منه المواشي والخيل! ولكن أين أهل القرية؟ أين النساء الراجعات من العين؟» (المصدر نفسه: ١٢٦-١٢٥)

وعرضت ناديا خوست سيرة حياة "قيس". أسهم أيضا في فهم علاقاته مع حبيبته في ذكراته. «يوم عاد إلى لبنان بعد عقود من الزمن سألت عن غزالة التي كان يلتقي بها في الكرم ويراهم من شرفته قادمة من العين ويسمعها أغنية أسمهان.» «ويوم رجع إلى بلده استبعد البحث عن نجيبة، كي يستبقى نجيبة القديمة التي كان يلقاها في حقول القمح. هي التي طلبت أن تراه فأرسلت زوجها إليه.» (المصدر نفسه: ١٢٢-١٢١)

تكشف رواية "نادية خوست" عن شخصية "منور" وتفسر الكاتبة هذه التحولات الكبيرة في شخصيتها، فلجأت إلى استرجاع تلك المرحلة الصعبة من حياتها التي



أعقبت استشهاد زوجها "بهاء"، ويقارنه مع استشهاد يوسف في حيفا. «هل تكرر منور أمها فاطمة التي منعت البكاء في مآتم زوجها يوسف في حيفا؟ حقدت عليها منور يومذاك لأنها لم تبك زوجها! ولم تنحن حتى الأرض أمام الحزن على العزيز! الآن فقط تفهمها. بعد عقود من السنوات تفهمينها؟ لاحتجاج فاطمة أن تفهميها اليوم يامنور! لأنها منذ زمن طويل أغلقت حزنها وفرحه.» (المصدر السابق: ١٠٣-١٠٢)

ما يرتبط الاسترجاع بعلاقة عكسيّة مع الزمن الروائي، من حيث اتساعه أو ضيقه. بمعنى أنه كلما ضاق الزمن الروائي شغل "الاسترجاع الخارجي" حيزاً أكبر في الرواية. (سيزا، ١٩٨٤م: ٤٠)

وقد يرغب الروائي، بالعودة إلى الماضي البعيد، وهذا ما نجده لدى ناديا خوست، حين جعل "منورا" تتذكر بهاء، برسالة وصلت إلى منور. «حمل رجل أتي من عند بهاء رسالة لمنور تطمئننها. لكن حديثه كان يناقض الرسالة.» فتحدث عن آخر مارآه.

كما سجل بهاء في مفكرته ما تعلق بجيش الإنقاذ أو بالمعارك التي خاضها، فضلاً عما كان يحكيه لزوجته كلما عاد من معركة. وكتب بهاء في مفكرته: «قبل أن نستريح هاجم اليهود بالدبابات والطائرات ميرون في جبهة صفد، ومجد الكروم، لينجزوا احتلال الجليل كله.» (خوست، ١٩٩٨م: ٩٩، ٩٨) ويقارن المؤلف بين الماضي والحاضر، ليربط بينهما. ستتذكر عائشة مع أميرة فيما بعد بيته في صفد، يوم نسفه الإنكليز بالقاذوانات. وستتذكران اليوم الذي رأتا فيه اليهود فوق مدرستهما في القلعة.

الاستشراق

هو حركة الزمن إلى الأمام متجاوزاً الماضي والحاضر إلى المستقبل، فيعرضه الكاتب كالومضة بتنبؤ أو استشراق في سياق الأحداث، ليعود بعدها الكاتب إلى زمنه بحاضره أو ماضيه؛ فهو قفز على فترة ما من زمن القصة، وتجاوز النقطة التي وصلها الخطاب لاستشراق مستقبل الأحداث، والتطلع إلى ما سيحصل من مستجدات في الرواية. (بحراوى، ١٩٩٠م: ١٣٢)

ومن هنا فإننا نجد استعمال هذه التقنية في الرواية الفلسطينية كثيراً، ومن



الأمثلة البارزة على ذلك، وهو تفكر بمستقبله، كما هو الحال لدى "قيس" في رواية "أعاصير في بلاد الشام". فقد استعانت الروائية ناديا خوست بالاستشراف. «فأبوقيس "عرف فيما بعد" أن اليهود العرب تجسسوا على الاجتماعات الدينية والجماهيرية والمساجد العربية، وعلى مشتريات العرب للسلاح، وقيس سيتفح "بعد عقود" كلمات شكرى العسلى في مجلس المبعوثان العثماني ويهتف لذلك الرائد الذي كشف يهود الدونمة مبكرا. وعن معارك صفد «سيكتب فيما بعد الكاتب "الإسرائيلي" عاموس متسوريف من عين زيتيم، وسيكتب اليهودى الأمريكى ليون أوريس عن حرق القرى العربية كمهمة إلهية، سيكتب رابين قائد القوات التي احتلت اللد والرملة في مذكراته عن تهجير سكانها، وسيكتب ألفريد ليلنتال بعد عقود من الزمن» كيف حدث التصويت على تقسيم فلسطين في الأمم المتحدة... (خوست، ١٩٩٨م: ٥١-٥٥-٦٤)

وفى رواية "أعاصير في بلاد الشام" نرى مثالا آخر للاستشراف، يتخذ صفة النبوءة وتجيء بتلك النبوءة فى الرواية، بوساطة الراوى العالم بكل شىء، وبعد النكبة ١٩٤٨م فى بنت جبيل، «كان الشيخ يدعو فى خطبه خلال الاشتباكات بين اليهود والعرب: اللهم رمل نساءهم، اللهم يتّم أطفالهم، اللهم اجعل أموالهم غنيمة للمسلمين!» (المصدر نفسه: ١١١-١١٠)

سيسرح قيس فيما بعد فى ذكرياته. «لماذا سيطمنى أن يعرف مصير من عبر حياته! ليطمئن عليه؟ أم ليسوق الصور إلى آخرها ويضعها فى مكانها الملائم منه؟ ليرتب سنوات عمره فى رفوفها ودروجها، ويتركها منظمة مثل خزنة ملابسه؟» (المصدر نفسه: ١٢١)

النتيجة

الرواية هذه، تقترب من التأريخ، لا بل تتكى عليه فى عملية السرد الروائى، التى أقامتها الروائية ناديا خوست. هى قدنجحت فى تصوير الزمان والمكان الروائيين بلغة جميلة وطريقة تيار الوعى وانثيال الأفكار والحوار الداخلى فى معمار روايتها الطويلة هذه. وغالبا تجعل الكاتبة، فى كثير من الأحيان، يعود إلى ماضيها وتستعمل الاسترجاع ونجد استعمال هذه التقنية فى الرواية الفلسطينية كثيرا.



تحصر ناديا خوست روايتها في الوقت الذي سبق احتلال فلسطين بأشهر قليلة، وما حدث بعد الاحتلال بوقت قصير أيضا. وعلى الرغم من أن الزمن الفيزيائي للرواية واسع جدا يمتد من فترة احتلال اليهود لفلسطين إلى وقت انهيار الاتحاد السوفيتي في التسعينيات من هذا القرن.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أرمن، سيدابراهيم. "تيار الوعي في التلصص لصنع الله إبراهيم". فصلية دراسات الأدب المعاصر. خريف ١٣٨٩ش. العدد ٨. ص ٩-١٨.
- بحرأوى، حسن. ١٩٩٠م. بنية الشكل الروائي. ط ١. بيروت: المركز الثقافي العربي.
- بوتور، ميثال؛ وترفيد أنكونيوس. ١٩٨٢م. بحوث في الرواية الجديدة. ط ٢. بيروت: دار عويدات.
- خمّار، عبدالله. فن الكتابة وتقنيات الوصف. (<http://www.khammar>)
- خوست، ناديا. لاتا. أعاصير في بلاد الشام. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
- صبحي، محيي الدين. لاتا. نظرية الأدب. ط ٣. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- قاسم، سيزا أحمد. ١٩٨٤م. بناء الرواية. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- مركز المعلومات الوطني الفلسطيني، مجازر العصابات الصهيونية بحق الفلسطينيين قبل واثناء عام ١٩٤٨: موقع وفا ٢٠١١.